«مقدمة علم الكشف»

كثير من الناس يجتذبهم اسم من الاسماء الكبيرة المشهورة كابن عربي مثلا فيقبلون على شراء مؤلفاته أو بعضها ، وعندما يشرعون في القراءة يرون العجب العجاب . فغير المتخصص في الفلسفة والتصوف ، والغريب عن مصطلحات الصوفية وعباراتهم لا يكاد يفقه مما يكتبون قيلا . ولقد اتفق لصديق لي ان اشترى كتاب ابن عربي (تفسير القرآن) ، وبعض النقاد يرون أن مؤلف هذا الكتاب ليس ابن عربي بل متصوف آخر ، ثم جاءني الرجل بعد ايام شاكيا قائلا : ما هذا ؟ صدقني انني حاولت أن أقرأ صفحة واحدة من الكتاب فلم استطع ، فكل ما جاء فيه هو اشبه بالاحاجي والألغاز . . فما العلاقة التي تجمع بين تفسير القرآن الذي اعتدناه وهذا التفسير ؟ . . وهنا تبسمت ضاحكا من شكوى صديقي ، علما ان الرجل محق في شكواه . . وسؤاله عن العلاقة بين التفاسير المعروفة لكتاب الله وتفسير ابن عربي هو بالفعل سؤال وجيه .

وبعد فما الأسس التي اعتمدها ابن عربي في تفسيره ؟ في الحقيقة ان الصوفية لايرون في الوجود إلاّ الله . اللهباطن الوجود ، وأما ظاهره فأسماؤه الحسنى المتمثلة في صفات وافعال . ولهذا فإن كل ما جاء في كتاب اللهمن قصص وأسماء وأحداث إنما لها في نظر العارفين تأويل . ففي الحديث أن لكل آية من آيات الله حدا ومطلعا ، والله سبحانه صرح بأن للقرآن تأويلا لا يعلمه إلا هو والراسخون في العلم .

فمن هم الراسخون في العلم الذين علموا تأويل القرآن ؟

يقول الامام الغزالي إن التأويل بحاجة إلى ان يكون له مدد من البصيرة وإلافليس هو بتأويل . ومدد البصيرة هذا هو الذوق الصوفي الذي يعيش تجربته

المكاشَف ، وسمى الغزالي هذا العلم بعلم المكاشفات كما ورد ذلك في كتابه الإحياء .

وتجربة الكشف تكشِف سر كون الله مع الانسان أينما كان ، ومعنى كونه هو أقرب الينا من حبل الوريد ، ومعنى قوله سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ومعنى قوله كل شيء هالك إلا وجهه ، ومعنى قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، ومعنى الحديث كان الله ولا شيء معه ومعنى تعليق الجنيد عندما اضاف قائلا : وهو الآن ولا شيء معه .

فالله الباطن الظاهر قد أظهر عبده على سره فعلم العبد سرا جعل الغزالي يقول عنه : وأن كُلٌ إلى طبعه راجع وصائر .

وتجربة الكشف معراج ، معراج من أرض الحواس والمحسوسات الى سماء الروح والمعقولات . وهذا المعراج رحلة ذاتية يعيشها المُراد متنقلا بين توحيد الفعل وتوحيد الصفة وتوحيد الذات حيث يصل الى مقام قاب قوسين أو أدنى وعنده أعلن جبريل لو تقدمت أنملة لاحترقت .

فما هي النار التي أعلن جبريل عندها أن لو تقدم أنملة منها لاحترق ؟ إنها النار المقدسة التي رآها موسى عندما قال : إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . وعندما جاءها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى .

والنار هنا نور ، اذ النار العادية من العناصر ، أما النور فهو الوجود لقوله سبحانه : الله نور السموات والأرض ، وهذا النور كان ذا أسماء لقوله سبحانه : ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . ويتبين في تجربة الكشف أن الاسم الإلهي فعال ، وأن له مظهرا ، وأن الانسان أحد حملة هذه الأسماء ، وأن مدلول صفته تعالى الظاهر هو ظهوره بأسمائه ، أي أن الظواهر مرآة الاسم الظاهر .

وواضح أن الاسماء كليات ، وأن هذه الكليات لله ومنبثقة عن الله ومؤيدة بنور الله . وكل كلي له جزئيات يظهر بها وإلا لما كان فعالا . وعندما يعلن الله أنه فعال لما يريد ، وأنه القاهر فوق عباده ، وأن ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها ، فإنه يؤكد بذلك أن الإنسان في قبضة الجبار ، بل هو ظهوره ، وأن لا وجود إلا للرب ، رب المربوبين المربوبين له ، وأنه لولا الرب ما كان المربوب .

ولقد كرم سبحانه آدم وفضله على كثير ممن خلق ، وذلك بخلعه سبحانه حلية أسمائه عليه وعلى بنيه . لنأخذ مثلاً على هذا الجميل من الناس ، فالجميل صورة وفعل . وأما الصورة فهي شطر الحسن الذي خلعه الله على يوسف وأمثاله ، وفي الحديث انشدوا الخير عند حسان الوجوه . وقد ظهر جبريل للنبي في صورة دحية الكلبي الذي كان أجمل الناس وجها ، وفي الحديث أيضاً ان الله جميل يحب الجمال . اما الفعل فيظهر في الفعل الجميل الذي قد يكون حُلماً مثلاً ، وقال فيه عليه السلام : سيد الحُلُم الأخلاق ، أو الحياء وقال فيه عليه السلام : الحياء نصف الإيمان .

إذن لقد ظهر اسم الله الجميل صورة وفعلاً في صور الناس وأفعالهم . والجمال معقول ، وهو في أصله صفة للنور . فالمعقولات المنبثقة عن العقل الكلي أو المسمى النور المحمدي بمصطلح الصوفية هذه المعقولات انوار الله التي ظهر بها أو احتجب بها . . ظهر بها لأصحاب البصيرة واحتجب بها عن أصحاب البصر .

والله سبحانه أخبرنا عن علم لَدُنّي علمه بعض أولياءه ، ومنهم يوسف الذي تعلم أن يؤول الأحاديث ويَعْبُر الرؤى التي يراها الناس كالرؤيا التي رآها عزيز مصر والتي جاء فيها أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف .

ولننظر الى هذا المنام الذي رأيته ذات ليلة : رأيت امرأة اسمها نبيلة ، حسناء بيضاء خالصة البياض قيل لي إنها من الحور العين . وانقلبت هذه المرأة الى امرأة أخرى أعرفها سمراء اللون كنيتها أم مصطفى ، ثم عادت المرأة الثانية فانقلبت فصارت المرأة الأولى التي اسمها نبيلة . ولقد خطب هذه المرأة أبي واسمه إبراهيم ، وقيل لي إن أبي هو الممثل فؤاد المهندس .

في الحقيقة يرى الناس جميعاً منامات يحارون في تفسيرها . ولقد برع في تفسير الأحلام علماء منهم ابن سيرين الذي وضع كتاباً حول هذا الموضوع . والناس الذين يجهلون علم تعبير المنام يقولون عما يرون في منامهم انه أضغاث أحلام ، والحق ان الله يتجلى لعباده في المنام ولكن لا يعلمون لأنهم لا يَعْبرون .

فإذا عدنا إلى الرؤيا المذكورة نقول إن علم التعبير يعتمد تجربة الكشف الصوفي الذي هو معراج كما قلنا ، معراج صوفي من الظاهر إلى الباطن ومن توحيد

الفعل الى توحيد الصفة إلى توحيد الذات . وعلى هذا يكون تعبير الرؤيا كما يلي : المرأة التي اسمها نبيلة ، والنبل صفة جميلة ، هي ذات وجه جميل ، فنحن أمام الاسم الظاهر للحق سبحانه الذي تجلى بصفة الجمال . وأكد هذا ان قيل في هذه المرأة إنها من الحور العين ، والحور العين صفات الله الجمالية في علوم الصوفية . وانقلاب المرأة الى امرأة أخرى سمراء اللون كنيتها أم مصطفى هو إشارة الى الاسم الباطن للحق الذي هو نور العقل ، والعقل يرمز إليه عادة بالسمرة التي هي لون وسط بين بياض النور وسواد المادة . ومعنى كنية المرأة ام مصطفى اشارة الى النور المحمدي الذي هو العقل الفعال في الفلسفة والذي هو وسيط نوراني يجمع بين الله الأحد والموجود المتكثر . أما خطبة أبي واسمه ابراهيم للمرأة فتعبيره أن إبراهيم نبي التوحيد ولقب بخليل الله ، وقيل إن الله تخلله ؛ والخطبة قرب ، والقرب مَعيّة ، والمعيّة مقام صوفي يصل اليه المكاشف في مكاشفاته يتبين له فيه أن إبراهيم الخليل هو مظهر الله ، ولهذا رأيت في الرؤيا أن أبي إبراهيم هو الممثل فؤاد المهندس ، والتمثيل ظهور والفؤاد الروح كما قلنا .

إذن تجلي الله بالأسماء والصفات في الرؤى والمنامات يتطلب علماً اختار الله له أعلامه فعلمهم من لدنه علما . وعلم هؤلاء كما سبق أن قلنا مشروط بأن يكون له مدد من البصيرة وإلا لما تمكن العالم من أن يكون له قدم راسخة فيه يبنى على أسسه بنيانه ويضع كتبه .

إن كل رؤيا يراها العارف يؤولها على أساس أن الكون وحدة ظاهرها الأسماء الإلهية وباطنها الذات الألهية . وليس العارف وحده من خُص برؤية الرؤى والمنامات ، فالله يتجلى لعباده كافة ، ولكن الناس يجهلون كيف يعبرون ما عَبَر الله به إليهم منهم ولقد كان النبي يسأل أصحابه عما إذا رأوا مناماً فإذا قص عليه أحدهم مناماً أوّله . وكان النبي يعلم أصحابه تعبير المنام حتى أنه لم استمع تأويل أبي بكر لرؤيا رآها قال له : أصبت بعضاً وأخطأت في بعض . فالناس يشاركون العارف في رؤية المنامات ، وهم قد يكونون له واسطة فيريهم الله في المنام ما يريهم حتى إذا قصوا ما رأوه على العارف أوّل ما رأوا وعبّر فاعتبروا .

من هذا المنطلق ، ولأن علم العلماء أمانة في أعناقهم عليهم أن يبثوه إلى الناس ، فلقد وضعت هذا الكتاب في تعبير الأحلام وسميت الكتاب علم الكشف ليعرف الناس كيف ومن أين يستقي الصوفي علومه الذوقية ومكاشفاته الروحية . وبوسع المهتمين بموضوع تعبير الأحلام وما كتب عنه ، وبقليل من الدربة والمران بوسع هؤلاء أن يصلوا إلى مرحلة يقومون هم بها بالتعبير كما فعل أبو بكر كما رأينا .

إن المتصفح لما ورد في هذا الكتاب من موضوعات حول التعبير وكيفية اشتقاق الصفة من الاسم أو الفعل ، وكيفية جمع الأسماء الى بعضها بعضا لاستخراج معنى ما ، بوسع هذا الإنسان أن يصل الى ما وصل إليه أبو بكر من درجة تمكن بها من تعبير المنام وإن كان قد أصاب بعضاً وأخطأ بعضا .

والمهم ألا يقع في ظن أحد أننا كتبنا هذا الكتاب على غير أسس ، وأننا خبطنا فيه خبط عشواء ، لا . . لقد سميت الكشف علما لأنه هو بالفعل علم له قوانينه ومعادلاته ومدخله ومخرجه .

ختاما أسأل الله أن يهدي القاريء كما هداني ، وأن يعينه على تشرب هذا العلم مثلما أعانني على تعلمه . فله المنة الكاملة والجزاء الأوفى سبحانه هو العليم الحكيم .

* * *

إن الذي ينال القوة الناطقة عن العقل الفعال هو الشيء الذي منزلته الضياء من البصر قد يفيض منه على القوة المتخيلة فيكون للعقل الفعال في القوة المتخيلة فعل ما تعطيه أحياناً المعقولات التي شأنها أن تحصل في الناطقة النظرية .

الفارابي